وباء إيران الأشد فتكا

علي الصراف
كاتب عراقي

مهما كانت الإحصاءات عن أعداد الضحايا في إيران بسبب وباء كورونا، فالحقيقة هي أن هذا ليس هو الوباء الأشد فتكا هناك.

التقديرات الرسمية تشير إلى نحو 5 آلاف من الضحايا، بين عدد من المصابين يبلغ نحو 83 ألفا. أما التقديرات الأكثر واقعية فإنها تشير إلى ما يتراوح بين 5 إلى 10 أضعاف هذا الرقم. لاسيما وأن السلطات تتعمد تسجيل الوفيات بكل الأمراض الأخرى التي يتسبب بها الوباء، وليس باسم الوباء نفسه. وهذه حيلة من الحيل المألوفة في تجارة الجهل التي يمارسها رجال الدين في إيران. والإيرانيون الذين يرون مستشفياتهم تنهار، يدركون أنها كذلك. وهم يتعايشون معها لأنهم، بالأحرى يعانون من وباء أشد فتكا بكثير من كورونا. فهم يرون كيف يتجرعون السم الزؤام الذي يصيب البلاد بأسرها، حتى هانت عليهم مصائب وباء لا يؤذي إلا أقل من 20 في المئة من الناس.

الوباء الحقيقي هو النظام الديني نفسه. وقد بلغ الشعور بخطورته حدا دفع الملايين من الإيرانيين إلى المطالبة بإسقاطه، حتى وهم يجازفون بحياتهم لمجرد الخروج في تظاهرات. وهذا ما حصل بالفعل، إذ قتل الآلاف، واعتقل عشرات الآلاف، وأعدم عدد كبير منهم بصمت وبتهم شتى لا علاقة لها بالسبب الأصلي لإعتقالهم.

هذا النظام، الذي أُرسيت أسسه الأولى على يد إسماعيل شاه الصفوي، وفقا لمنهج طائفي كذوب ومتطرف، تمكن من خلال حشد من المجازر والأعمال الوحشية، من توحيد المقاطعات الإيرانية التي لم تكن خاضعة بعد للهيمنة الفارسية. وكان فرض المذهب الشيعي، بموجب سلسلة لا نهاية لها من الأكاذيب المضمخة بالحقد، هو الحيلة الأولى لتكريس تلك الهيمنة. وبالقهر والقوة وأعمال القتل الجماعي، أصبحت إيران ما نعرفه الآن، جغرافيا وطائفيا. لا شيء سوى ذلك. لا لغة ولا ثقافة ولا دين. القتل فقط كان هو القوة المؤسسة لهذه الإيران.

هذا هو الأساس. وهو أساس حقود، دموي، متعفن، شديد الميل إلى المراوغة والجمع بين الدجل والمُسْكَنة، حتى أصبح الأمر معيارا ثقافيا وطيدا في مجتمع الجهل الذي آمن بالعمامة.

الأصل في الحقد كان ضد الإسلام نفسه، حتى ولو اتخذ من الكراهية ضد العرب ستارا له. وكانت تلك، في الواقع، مصيبة مزدوجة، لم يعرف العرب كيف يتعاملون معها. فمن ناحية يزعم طائفيو الصفوية أنهم مسلمون، ولكنهم يحتقرون الإسلام، ويزورون تاريخه، ويبتدعون فيه ما ليس منه، ويكرهون الذين حملوا رسالته. ومن ناحية أخرى، فإنهم عندما يضعفون، يتحدثون بلسان عذب، وعندما يشتد عودهم يعودون إلى قطع الرقاب. وأصبح ذلك معيارا منهجيا يُدعى "التقيّة".

مضت الأيام لتتقلب إيران بين إمبراطورية وأخرى، ولكن جمر الحقد ظل يتقد. تدعمه ثقافة تتخذ من الطائفية عمادا لها، وتستند إلى منظومة أباطيل تترسخ جيلا بعد جيل، وتحاط بالمزيد من الدجل حتى لم يعد بوسع المجتمع دحضها. ولقد ولدت "الجمهورية الإسلامية" عام 1979، لتجسد مساوئ الزيف، وتدلق الحقد على العرب، وتنفث السم ضد الإسلام، وهي آخر ما يستطيع الزعم أنه "جمهورية" وآخر ما يدين بالإسلام. حتى شهادة "لا إله إلا الله، محمد رسول الله"، لا تقال هناك إلا مع زيف يُضيف إليها ما لم يقل به رسول الله.

المشروع الطائفي هو ذلك الوباء. والولي الفقيه هو بيت الداء، وعصابات الحرس الثوري هي فايروساته. وقد يمكن العثور على لقاح لكورونا. ولكن لا يوجد مختبر واحد في العالم يمكنه أن ينتج لقاحا ضد الوباء الطائفي

"الجهل المقدس" تعبير أطلقه أحد نواب البرلمان الإيراني (أحمد مازني) للتنديد بثقافة "لطع" الأضرحة والتبرك بشبابيكها وأبوابها، بينما كان كورونا يتحول إلى وباء ساحق.

والحقيقة، فإن "الجهل المقدس" هو نتيجة طبيعية للوباء الأصلي. إنه فقط ظاهرة اجتماعية لا مفر منها عندما يتحول التزييف الطائفي وتزوير التاريخ والانحراف بالدين، إلى دين آخر لا علاقة له بالإسلام من الأساس.

الجانب البراغماتي وحده هو الذي أقنع "الولي الفقيه" بقبول إغلاق تلك الأضرحة. ففي النهاية هو يريد شعبا يحكمه. وليس من المناسب أن يتسبب "جهله المقدس" بموت الملايين من الإيرانيين، لمجرد أنهم يتبعون إرشاداته الروحية للتبرك بالوباء. وكانت تلك مفارقة عجيبة بالنسبة لذلك الدين الذي يتعبد رفاة الأضرحة، ويتخذها وسيطا وزلفى، كما يفعل عبدة الأصنام. إلا أنها ظلت مفارقة، ولم تتطلب فقها للنظر فيها.

انظر في الإحصاءات الأخرى، لتعرف كم كان الوباء الأصلي سببا للدمار الشامل الذي تعيش إيران اليوم نتائجه.

أول نفثة السموم انطلقت نحو العراق لتُشنَّ ضده حربا انتهت بمقتل أكثر من مليون إيراني. اندفعت ثقافة "الجهل المقدس" لتفتح حقول الألغام على الحدود بين البلدين بموجات من البشر الذين يحمل كل منهم مفتاحا ليدخل به الجنة، وذلك على غرار أقذر ممارسات الكنيسة المسيحية التي منحت الرعاع مفاتيح الجنة للمشاركة في الحروب الصليبية.

لم تكن الحرب حربا مثل باقي حروب خلق الله. كانت مجرد مجزرة، دافعها الوحيد هو الحقد. وفي معسكراتها تَربّى كل الذين جاؤوا بعد غزو العراق من ميليشيات وجماعات ليكملوا ما بدأ به وليّهم الأول. جاؤوا يحملون الكراهية للعراق، ويزعمون في الوقت نفسه، أنهم "عراقيون". وذلك مثلما يزعم أصحاب الفيل الصفوي أنهم "مسلمون". فأفسدوا ودمروا ونهبوا وقتلوا وشردوا واعتقلوا وأعدموا، حتى شملت حصيلة المشروع الطائفي ما لا يقل عن دمار ثلثي البلاد وتشريد خمسة ملايين نسمة ومقتل مليون نسمة على الأقل.

أحص ما جنته إيران نفسها من عواقب هذا المشروع. ستجد دولة منهارة على كل وجه، واقتصادا متداعيا، وميليشيات حولت مؤسسة الدولة إلى مجرد ظل بليد، لا يملك من أمره شيئا. والفقر والبطالة والمخدرات تنهش الجسد الاجتماعي كما لا يمكن لأي وباء أن يفعل.

المشروع نفسه تمدد لكي يلقي بظلاله الهمجية، أحقاده، أباطيله، وتقيته، على أكثر من بلد في الجوار. وامتدت ثقافة الحقد لكي تورث المجتمع السوري ما لا يقل عن نصف مليون قتيل، وأكثر من 10 ملايين مشرد. دع عنك لبنان، ودع عنك انقلاب الحوثي في اليمن.

مسكين كورونا، كم ألقيت على عاتقه من أعباء، خطير، أعمى. ولكنه ليس أخطر من الوباء الذي جوّع إيران ودمر العراق وأحرق اليمن وأفلس لبنان.

المشروع الطائفي هو ذلك الوباء. والولي الفقيه هو بيت الداء، وعصابات الحرس الثوري هي فايروساته.

وقد يمكن العثور على لقاح لكورونا. ولكن لا يوجد مختبر واحد في العالم يمكنه أن ينتج لقاحا ضد الوباء الطائفي.

يكفي أن تنظر إلى ما حل بالعراق على امتداد 17 عاما من هيمنة المشروع الصفوي، وسترى بوضوح أنه وباء وبلاء ما أصيب به شعب على وجه الكرة الأرضية. وهو وباء قديم أيضا، بقدم الطاعون نفسه.

شيء واحد ظل يحيرني، ولم أجد له تفسيرا: بعد أن توحدت إيران على يد إسماعيلها الصفوي ذاك، لماذا لم تتجه شرقا أو شمالا، لتنشر دينها هناك؟ وبعد أن أنجزت العصور ما أنجزت من تغييرات وإعادة رسم خرائط، لماذا ظلت أعين أصحاب هذا المشروع تتجه إلينا نحن، بينما يوجد عالم فسيح يمكن الذهاب إليه؟ بعبارة أفصح: لماذا لم يحلوا عن ربنا وسمانا؟

وتتملكني قناعة لا أعرف كيف أتغلب على سؤالها المحض: هل أخطأنا عندما قمنا بنشر رسالة الإسلام في إيران، لكي ينقلب الأمر وبالا علينا وعلى الإسلام؟ ألم يكن من الأنسب لنا أن يبقوا يعبدون النار؟

عطفا على ما أثير عن المسلسل السعودي

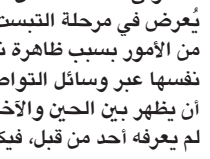

عدلي صادق
كاتب وسياسي فلسطيني

أشعل مسلسل "مخرج 7" المعروض على شاشة سعودية، سجالا عبر وسائل التواصل الاجتماعي، ما اقتضى التعقيب على ما أُثير، دون انفعال.

وباعتباري فلسطينيا مؤمنا بكل حرف من قضية شعبي؛ أجد من واجبي وضع بعض النقاط على الحروف المتصلة بموضوع الإنسان الفلسطيني وقضيته، بكل موضوعية واحترام لكل الأطراف، ودون الافتئات على أحد، وأيضا دون تحميل المسألة أكثر مما تحتمل.

فالعمل الدرامي أو الكوميدي، بطبيعته ليس عملا فرديا. لكن كاتب العمل خلف الحربي، هو الذي وضع الجمل على لسان الممثلين، ولكونه سعوديا، يتوجب التنويه إلى مجموعة من النقاط، كنا نأمل أن يتنبه إليها، وبعضها موصول بالسياسة.

ما يرشح أحيانا من بعض الإعلام السعودي، يظلم الموقف السياسي السعودي الرسمي الإيجابي في حقيقته، بحكم أن الفكرة دائما أن النظام السياسي هو الذي يقف وراء ما يُقال في إعلامه، وهنا فإن المشكلة تصبح أكثر تعقيدا

أولى هذه النقاط أن المسلسل يُعرض في مرحلة التبست فيها الكثير من الأمور بسبب ظاهرة نشأت وقدمت نفسها عبر وسائل التواصل، قوامها أن يظهر بين الحين والآخر، شخص لم يعرفه أحد من قبل، فيكيل اتهامات لشعب بعينه، ويقدم صورا نمطية لهذا الشعب، سواء كان الفلسطيني أو غيره. وللأسف، تعرض الإنسان الفلسطيني للنصيب الأوفر من مثل هذه العروض، غامضة الخلفيات، لسبب يحتاج إلى دراسة نفسية متأنية، ترصد سلوك من أعيته الوسيلة للخروج من جلده. وأغلب الظن أن هناك جوانب مسكوت عنها في أسباب هذه الظاهرة، لكن ما نعرفه يقينا أن الاستهداف جاء في أقسى مراحل المظلومية التاريخية للشعب الفلسطيني!

لا بد أن يكون كاتب المسلسل على علم، بأن قصة العرفان بالجميل أو نكرانه، ظاهرة إنسانية لا تُناقش في معرض الحديث عن شعب بعينه. فالكاتب والمخرج وعائلة كل منهما، عرفت ناكرين وعارفين. وربما يكون قد غاب عن ذهن الكاتب، تقدير كل شعب لنوع الجميل الذي يعنيه في النص، فإن كان إعطاء إنسان فرصة عمل، فهي مقايضة شيء بشيء، كما يحدث مع أي إنسان من طائفة بوذا مثلا، وإن كانت المساعدات الحكومية جميلا، فإن مثل هذه المساعدات، تنالها بأضعاف مضاعفة أطراف لا تكنّ للعرب أي احترام، ثم لا علاقة لمثل هذه المساعدات، بالناس وآرائهم، ولم نسمع في حياتنا فلسطينيا ينكر وقفة المملكة العربية السعودية مع النضال الوطني الفلسطيني، فهذه من ثوابت التاريخ، فلماذا التمحك بالفلسطينيين دون سواهم؟

خارج موضوع المسلسل، ليت الكاتب خلف الحربي قد تنبه إلى أن معظم الذين ظهروا على وسائل التواصل، وتفوهوا بعبارات هجائية ضد الشعب الفلسطيني، وأشادوا بإسرائيل، ولم يستثنوا حتى المسجد الأقصى، كانوا سعوديي الهيئة، ولا نقطع بأنهم سعوديو المواطنة أو الثقافة. فالفلسطينيون يعرفون شعب المملكة ويقدرونه، وفي كل مرة يظهر واحد من هؤلاء سرعان ما يظهر في الصورة -كرجع الصدى- أفيخاي أدرعي، الناطق باسم الجيش الإسرائيلي على المستوى العربي، ويتبدى وكأنه أصبح والمواطن السعودي يشكلان حلفا واحدا. إن هذه الحقيقة أوجبت الحذر، لاسيما وأن الظاهرة بدأت مع كلام آخر يقوله خصوم السعودية عن علاقة تحالف مع إسرائيل، ولكي لا يُفهم ما جاء في المسلسل باعتباره معطوفا على تلك الظاهرة وذلك الكلام.

وهناك نقطة لا ذنب فيها لكاتب العمل الكوميدي خلف الحربي ولا للمخرج أوس الشوفي. وهي أن الأوجب بالنسبة لمن يصنع مسلسلا يُعرض في رمضان، أن يُعاين البيئة النفسية السياسية للجمهور المتلقي، وأن ينظر في كل ما استجد من ظواهر على وسائل الاتصال، لأن هذا الفضاء هو أصلا فضاء المشتغل في الدراما. وبكل صراحة نقول إن الإعلام السعودي في هذه المرحلة، أحوج من الإعلام الإيراني إلى تبني قضايا الأمة، لأسباب كثيرة لا يجهلها مؤلف النص، وهذه الأسباب ذاتية وموضوعية بالنسبة للإعلام السعودي. فليس معقولا في وقت تعرض فيه قناة "الميادين" مناقبية الفلسطينيين في مسلسل "حارس القدس"، وأن تكون المادة في التلفزيون السعودي عن الفلسطيني ناكر الجميل أو العارف بالجميل، وكأن الفلسطيني هو خازوق القرن الحادي والعشرين الذي يريد المسلسل أن يحسم الموقف منه. ونقولها بكل صراحة، إن ما يرشح أحيانا من بعض الإعلام السعودي يظلم الموقف السياسي السعودي الرسمي الإيجابي في حقيقته، بحكم أن الفكرة دائما أن النظام السياسي هو الذي يقف وراء ما يُقال في إعلامه، وهنا فإن المشكلة تصبح أكثر تعقيدا.

النقطة الثالثة، وهذه تحتاج إلى من يؤمن بصواب قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه "رحم الله امرأ أهدى إليّ عيوبي"؛ لكي ننصح بأن الجملة السياسية القصيرة، في العمل الدرامي، تكون دائما عميقة وبليغة ومقتضبة مثلما تعودنا عليها في السينما، وكاتب السيناريو دائما يجب أن يوليها أهمية كبيرة. ولا تصلح الجملة السياسية لعمل كوميدي، لاسيما عندما يؤخذ الناس بالجملة في الهجاء، ويؤخذ مجموع الناس بالفرد عند المديح أو عند محاولة دمج الشعب بشخص أو نظام، أو تحويل النظام إلى معادل موضوعي للشعب. فإن انتقد الفلسطيني موقفا سياسيا، فلا علاقة لنقده بالشعب العربي في السعودية، ولا علاقة لرأيه بموقف فلسطيني آخر، يمتدح موقفا سياسيا للسعودية، وليس موقفه صدى لموقف مواطن سعودي ينتقد الحكم في بلاده، ولا هذا الأخير عندما ينتقد يصبح هو السعوديين جميعا، فهذه أمور بديهية.

أما بالنسبة للمفردات المتداولة والمتكررة في كل محاولة شخص فرد، التهجم على الشعب الفلسطيني؛ فهي بالطبع لا علاقة لها بالمنطق ولا بالتاريخ، ولا بثقافة العامة، والمؤسف فيها أحيانا أنها تشكك في الحقوق الفلسطينية وحتى في أهمية المسجد الأقصى الذي بارك الله حوله في القرآن الكريم. ودون مكابرة أو ادعاء، إن مثل هذه التفوهات مثيرة للسخرية ولا تؤثر في ولاء الفلسطينيين لأمتهم العربية. فنحن دائما نحذر الشباب الفلسطيني، من ظاهرة التهجم التي يراد منها الفتنة. وقلنا إن هذه أفخاخ عبر وسائل التواصل، لجر ردود أفعال هوجاء ومستنكرة، تذهب بالشباب البسيط إلى التهجم على أي شعب شقيق، وهي لا تقتصر على الفلسطينيين وأي شعب آخر، بل تشمل شعوبا ومناطق وبلدانا وعشائر.

يأسف المرء عندما يسمع مواطنا عربيا يشكك في مفردات القضية العربية المركزية، دون أن يزجره أحد، بينما مثلا، ستجد صحافيا نائب رئيس تحرير واحدة من أهم الصحف الإسرائيلية، أو أستاذا للتاريخ في جامعة تل أبيب، كالبروفيسور شلومو ساند، يزجر الطالب اليهودي عندما يشكك في الحق الفلسطيني وفي عدالة القضية الفلسطينية، بينما لا يجد المغرد العربي بنكران الحق من يزجره.

العرب
أول صحيفة عربية صدرت في لندن
1977 أسسها
أحمد الصالحين الهوني

رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير المسؤول
د. هيثم الزبيدي

رئيس التحرير والمدير العام
محمد أحمد الهوني

مدراء التحرير
مختار الدبابي
كرم نعمة
حذام خريف
منى المحروقي

مدير النشر
علي قاسم

المدير الفني
سعيدة اليعقوبي

تصدر عن
Al-Arab Publishing House
المكتب الرئيسي (لندن)
The Quadrant
177 – 179 Hammersmith Road
London, W6 8BS, UK
Tel: (+44) 20 7602 3999
Fax: (+44) 20 7602 8778

للإعلان
Advertising Department
Tel: +44 20 8742 9262
ads@alarab.co.uk

www.alarab.co.uk
editor@alarab.co.uk